مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

العمران في مدينة ندرومة ومنطقة ترارة من خلال كتابات الرحالة والجغرافيين -دي موبري وكنال انموذجا

Urbanism of Nedroma and the Trara area through the writings of the travelers And geographers - De mauprix and Joseph Canal as a model

د. صبرينة الواعر
sabrinaboulouednineloua ar@gmail.com
المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار قسنطينة

تاريخ الإرسال :02–12–2020 تاريخ القبول :22–04–2021

I. الملخـــص:

اختلفت أنماط العمران في الجزائر، باختلاف الأمكنة والأزمنة، وقد وضعت كل مرحلة تاريخية بصمتها وهويتها على السكن الجزائري، إلى غاية قدوم الاحتلال الفرنسي، هذا الأخير حاول أن يلقي بظلاله على العمران في الجزائر، بطريقة تتماشى وهدفه الرامي لنشر المدنية والحضارة الأوروبية، وفي الطريق لتحقيق ذلك، نجده يعكف على دراسة الهوية الجزائرية، ولمس خصوصياتها في حياتها اليومية، ومحاولة فهم أساليبها الحياتية، والمسكن أحد عناصرها الأساسية، فهو مكان الإقامة والعائلة. فلا نستغرب حين نجد دراسات فرنسية مستفيضة جعلت من الحياة الاجتماعية للجزائريين موضع بحثها. سنخصص دراستنا للحديث عن عمران منطقة ندرومة وإقليم ترارة في الغرب الجزائري من خلال الدراسات الفرنسية واعتمدنا كتابات دي موبري وجوزيف كنال

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

كنموذجين. وقد خلصنا في عملنا أنه مهما بلغت أهمية الدراسات الإثنوغرافية الفرنسية إلا أنها تنطلق من مبدأ "أوروبا المتحضرة"، و"إفريقيا البدائية" والمتخلفة.

الكلمات المفتاحية: العمران ؛ ندرومة؛ ترارة؛ دي موبري؛ كنال ؛

I. ABSTRACT:

In Algeria, urban patterns varied, with different places and times, and each historical stage put its identity on the Algerian residence until the arrival of the French occupation, the latter tried to cast a shadow over the urban areas in Algeria in a way that is consistent with its goal of spreading the European civilization. We will devote our study to talking about the urban of the Nedroma and Trara region through French studies and have adopted the writings of De Mauprix and Joseph Canal as models.

Keywords : Urbanism; Nedroma; Trara; De Mauprix; Canal.

1. المقدمـــة:

تميز العمران في الجزائر بتنوعه واختلافه عبر العصور مع تنوع الفئات الاجتماعية واختلاف المقاطعات الجغرافية شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، وقد تركت كل مرحلة تاريخية بصمتها وهويتها على السكن الجزائري، إلى غاية قدوم الاحتلال الفرنسي. هذا الأخير حاول أن يلقي بظلاله على العمران في الجزائر، بطريقة تتماشى وهدفه الرامي لنشر الحضارة والمدنية الأوروبية، وفي الطريق لتحقيق ذلك، نجده يعكف على دراسة الهوية الجزائرية، ولمس خصوصياتها في حياتها اليومية، ومحاولة فهم أساليبها الحياتية، والمسكن أحد عناصرها الأساسية، فهو مكان الإقامة والعائلة. فلا نستغرب حين نجد دراسات فرنسية مستفيضة جعلت من الحياة الاجتماعية للجزائريين موضع بحثها.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

هذا ما نسعى للكشف عنه من خلال دراستنا التي ستسلط الضوء على نمط العمران والسكنات في الغرب الجزائري بناءً على ما ورد في كتابات الرحالة والجغرافيين الأوروبيين، وقد خصصنا إقليم ترارة ومدينة ندرومة، وهي مقاطعة تابعة له كعينة للدراسة. واعتمدنا على دراستين للباحثين شارل دي موبري (Charles Mauprix de) وجوزيف كنال (Joseph Canal) كنموذجين للأعمال التي عنيت بنمط العمران والسكنات، فإلى أي مدى وفقا الباحثين في إيضاح نمط العمران في منطقة ترارة؟ وهل يمكن اعتمادهما على غرار دراسات أخرى على شاكلتهما كمصادر أساسية في تاريخ العمران المحلي؟

2. دراسة شارل دي موبري لمنطقة ترارة ومدينة ندرومة:

شارل دي موبري (Charles de Mauprix) هو جغرافي فرنسي قام بجولة في إقليم ترارة، دامت ستة أشهر كانت انطلاقتها من الرمشي يوم 07 جانفي1888، ونهايتها يوم 20 جوان في منطقة هنين، ومن ثمة العودة إلى تلمسان استعدادا للسفر إلى فرنسا.

لا نعلم ما هدفه وراء هذه الرحلة، وإذا كان الأمر متعلقا حقا بجغرافية وعمران المنطقة، فذلك لا يتضح في سرده لرحلته، والغالب أنها كانت بداعي الفضول والمغامرة لا أكثر، ذلك أنها نشرت في مجلة "حول العالم" "Le Tour du Monde " التي تنشر رحالات المستكشفين والمغامرين من كل العالم وليس فرنسا على وجه الخصوص[1].

1.2. وصف دي موبري لسكنات ترارة:

[1]– صدر العدد الأول من هذه المجلة سنة 1860، وقد عكفت على نشر قصص كبار الرحالة وأهم المستكشفين في ذلك العصر أمثال: ليفانغستون Livingstone، ستانلي Stanley، بورتون Burton، سافراي Saffray، قارنيي Garnier، برازا Brazza، سكوت Scott، أموندسن Amundsen، وآخرون...

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

قسَم شارل دي موبري السكنات إلى قسمين:

– منازل المرتفعات

– منازل المنحدرات

وهذا التقسيم مرتبط حسبه بالمستوى الاجتماعي لصاحب المسكن في المجتمع القبائلي، فإذا كان من الأغنياء فسيشيد منزله في مكان مرتفع، وإذا كان من أسرة متواضعة وفقيرة يقيم منزله على المنحدر، حيث يقول[1]: «أن منازل المرتفعات مكلفة وتتطلب ميزانية أكثر لإقامتها بالنظر إلى صعوبة موضع البناء، وهي تتطلب إقامة أربعة جدران لانعدام دعامات ترتكز عليها لكي تكون محمية، لذلك يجب أن يتمتع البناء بالصلابة لكي يقاوم الرياح و الأمطار».

في الواقع؛ إن المساكن الترارية على غرار كافة المساكن في المناطق الجبلية يتم بناؤها بواسطة المواد المحلية، أي ما توفر من الأرض المحيطة بها، سواء من الصخر، أو الطين، والأشجار، ونبات العرعار، ولا تحتاج إلى مواد باهظة، تستلزم التنقل بعيدا لجلبها.

إنّ ما أشار إليه دي موبري لا يمكن تقبله ببساطة، فقضية الارتفاع والانحدار مرتبطة بالدرجة الأولى بالطابع التضاريسي للمنطقة المدروسة، فلا يخفى علينا أن منطقة ترارة هي منطقة جبلية، زد على ذلك أن المثال الذي اعتمده دي موبري في نظريته يخص منطقة بني ورسوس فقط ودليل ذلك أنّ المنازل التي قام بوصفها ووضع مخططات لها كانت ملكا لشخصين رافقاه في رحلته وهما عبد القادر وعلي وكلاهما يقيمان في بني ورسوس.

[1] –Charles de Mauprix, "six mois chez les traras", In le tour du monde, librairie Hachette & C, Londres, 1889, p 369.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

وفي الغالب جل السكنات الترارية تقع على المنحدرات الجبلية، بحيث تكون على الدوام مرتفعة، حيث يسهل للتراري مراقبة أرضه وما حولها[1].

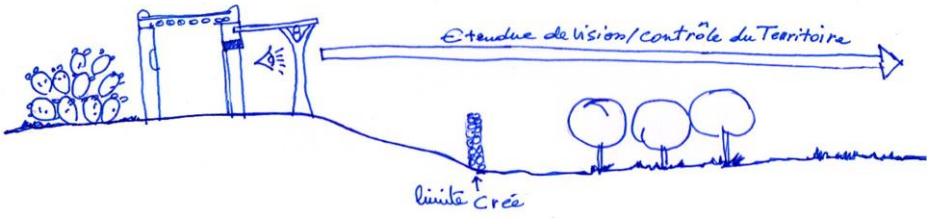

Khattabi Lahcene, L'habitat individuel et l'urbain Nédromis en transformation, p108.

وقضية الغنى والفقر لا ترتبط بالعلو والانخفاض، وإن تحدث عن ثقل الميزانية في المنازل المرتفعة التي يشيدها الأغنياء فقط، فهو يعود وينفي ذلك في حديثه عن أبواب منازل الأغنياء المدعمة بقطع من صناديق حوانيت البقالة؟[2]

ساهم الطابع التضاريسي في تشييد هذا النوع من المنازل، وبالإضافة إلى اهتمامات صاحب المسكن، ولا دخل للفقر والغنى في ذلك. فبالنسبة لسكنات المرتفعات يفضلها السكان لأسباب دفاعية كما كان يحدث في الفترات التاريخية المضطربة أو بتجنب خطر الفيضانات، والسيول التي تتعرض لها المناطق المنخفضة، أو لربح المجال

[1]–Lahcene Khattabi, L'habitat individuel et l'urbain Nédromis en transformation, Doctorat en Architecture, soutenue le 12/09/2017, Faculté de Technologie, Université Aboubkr,Belkaid, Tlemcen, p 108.

[2]– Op.Cit, p 370. Charles de Mauprix,

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

الزراعي بتخصيص المناطق المرتفعة للسكن والموجودة في الأسفل للزراعة فتسهل مراقبة المزارع والحقول والإشراف عليها[1].

أما بالنسبة لسكن المنحدر فيتحكم في انتشاره في هذه الأماكن عاملين رئيسيين هما: وفرة مصادر المياه بشكل عيون وينابيع خاصة في مناطق تموضع الكلس فوق الطبقات الصخرية غير النافذة أو ليحتل السكن موقعا وسطا بين رسطاقين (أراضي لها مؤهلات زراعية معينة) اثنين أو حيزين اثنين حيز الزراعة والمغارس في الأسفل، وحيز الرعي وبعض الزراعات الخفيفة في الأعالي[2].

تتخذ منازل المرتقعات في منطقة ترارة حسب ما أورده دي موبري شكلا مستطيلا، لكن لدى العائلات الثرية والكبيرة يتألف المسكن من غرف مستقلة عديدة تدعم الواحدة منها الأخرى بطريقة تحافظ على شكل الفناء الداخلي للمترل[3].

[1] – Lahcene Khattabi, Op.Cit, p 108.

[2] – جغرافية الأرياف، مجلة دراسات وأبحاث جغرافية. http://swideg-geography.blogspot.com/2016/10/blog-post_54.html#.YFe-m99KjIU، تاريخ الزيارة: 05–11–2020.

[3] – Charles de Mauprix, Op.Cit, p 369.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

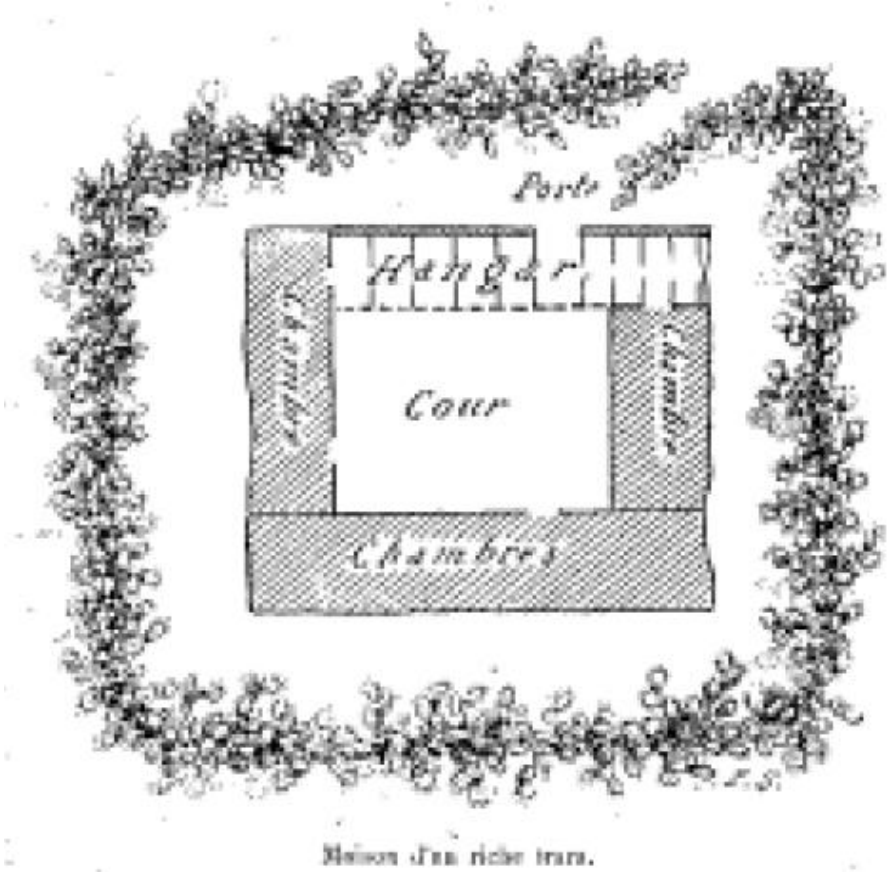

الصورة رقم 01: مخطط دي موبري لمسكن أحد الأثرياء في منطقة بني ورسوس

أمّا منازل المنحدرات فلا تتطلب في إقامتها سوى جدار واحد، وفي بعض الأحيان جدارين على الأكثر إذا كان المالك يسعى لتدعيم وتثبيت السكن على جانبين في وقت واحد، وفي كلا الطريقتين لا ينفق على البناء المال الكثير لذلك كان النوع الأكثر إقبالا من طرف العائلات المتوسطة والفقيرة.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

كما يخلو الطابع الهندسي لمنازل المرتفعات ومنازل المنحدرات على حد سواء من النوافذ، ولا ينبعث ضوء النهار إلاّ من خلال باب المنزل الذي يترك مفتوحا أغلب الوقت، وفي حال ما إذا كان لأصحاب المنزل أشغالا تتطلب إنارة أكثر، عندها يكون خارج المنزل هو الحل[1].

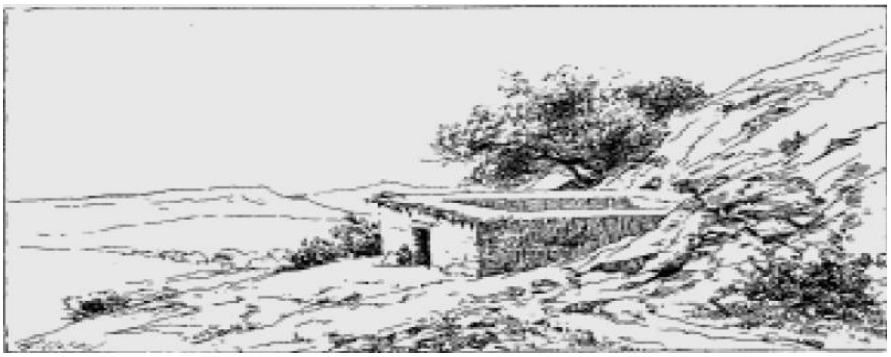

الصورة رقم 02: نموذج لمنزل في منطقة ترارة - De Mauprix

وفيما يخص وسائل الإغلاق يقول دي موبري «فهي أكثر بدائية، وتتكون في أغلب الأوقات من رف واحد من الفروع المتداخلة تشكل باباً مدعومة بمفاصل وبوصلات من نبات الحلفاء والنخيلات (**Palmier nain**)».

ولا تحوي أبواب المنازل التراية أقفالا لكنها عوضت بقطع خشبية تلتف على الباب. وقد سعى التراريون أن يكون لمنازلهم صبغة جمالية وذلك عن طريق نقوش الأرابيسك الطينية الموضوعة أعلى الباب.

[1] –Charles de Mauprix, Op.Cit, p 369.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

الصورة رقم 03: نقش تراري– De Mauprix

كما يفضل التراري العيش بمفرده ولا يبحث عمن يجاوره السكن، ولذلك لا تبرز تجمعات كثيرة، وحتى في الأماكن المرتفعة التي تتوفر فيها المياه وبالتالي تتطلب إقامة تجمعات سكانية، و لم يشيد سكان ترارة مساكن متجاورة، وجعلوا مسافة بين مسكن وآخر، ويحيطون منازلهم بنبات الصبار السميك الذي يخفيهم عن الأنظار مما جعل قراهم تبدو وكأنها بساتين فسيحة بدل أن تبرز كتجمعات سكانية[1].

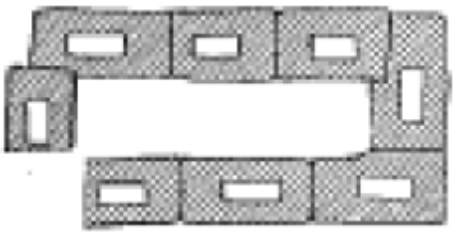

الصورة رقم 04: نمط لتجمع سكاني في بني مسهل– De Mauprix

في الحقيقة، أن مساكن التراريين متفرقة ومتباعدة وهذا بسبب الطابع الجغرافي للمنطقة وندرة المياه في أعالي الجبال، حيث تقام السكنات أينما توفر الماء، ولذلك كثرت الآبار في تلك المناطق، ويضاف إلى ذلك ثقافة العائلة الصغيرة ويفسر ذلك بصغر حجم المنازل، دون أن ننسى ثقافة الزراعة المعيشية، وزراعة المدرجات، وكذلك أكواخ

[1] – Charles de Mauprix, Op.Cit, p 369.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

الأنعام والدواجن التي تقام في تلك المواضع والتي من شأنها خلق مسافات بين مترل وآخر[1].

الصورة رقم 05: مترل تراري بديار بن موسى، عين فتاح، بني مسهل

نقلا عن Khattabi Lehcene, Op.Cit, p105

2.2. وصف دي موبري لعمران ندرومة:

زار دي موبري مدينة ندرومة بتاريخ 15 مارس 1888، وتعد ندرومة مركز منطقة ترارة كونها مركزا للبلدية المختلطة التي تجمع عددا من القبائل الترارية كبني مسهل، بني منير، بني خلاد، وقد استهل وصفه للمدينة وهو جغرافي بقوله: «كباقي المدن العربية؛ ابتدأت خيبة الأمل بمجرد عبورنا إحدى الأبواب المقوسة للسور (سور المدينة)، في الأزقة الضيقة والملتوية، القذرة، المثيرة للاشمئزاز، ورغم ذلك هنا (في

[1] – Ibid, p 369-370.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

ندرومة) ولا حتى في أكثر القرى الأهلية قذارة لم أندم على زيارتي، لأنّه في كل خطوة تقف العين وترحب بكل هذه التفاصيل الممتعة للهندسة والحياة العربية. من خلال الأقواس المرتفعة والأبواب بالأقفال وكذلك النقوش الخشبية الجميلة في المسجد الكبير الذي لا يكتسي جمالية في الداخل لكنه يحوي كتابات كوفية في منبره ويضاف إليه جامع أقل مساحة بطابع عمراني عتيق بأبوابه، وأقواسه العلوية مدببة الحواف ولسوء الحظ أصبحت تتهاوى وهو مسجد القدارين المتواجد في شارع صناع الفخار»[1].

لم يشر دي موبري خلال زيارته لمدينة ندرومة إلى سكناها رغم إشارته لعدد سكانها البالغ 4000 نسمة، 300 منهم يهود، وحوالي 60 أوروبي، واكتفى بالوصف السريع للجامع الكبير وكذلك جامع القدارين، وعن المنازل البيضاء ذات السطوح التي شاهدها عندما اقترب من المدينة، في حين ركز على الشارع الأوروبي ومسكن مدير البلدية القرميدي[2]، وكأن ندرومة تخلو من المساكن بما فيها المساكن القرميدية؟

بناء على المعطيات التي قدمها دي موبري حول مدينة ندرومة يتضح لنا عدم إعجابه بثقافة العمران في المنطقة، فحينما يتحدث بتهكم وسخرية عن الشوارع والأزقة الضيقة والملتوية فهو لا يعلم سبب إقامتها بهذا الشكل، ويبرز هذا في تفاخره بمدينة نمور (الغزوات) التي اعتبرها نموذجا مصغرا للمدن الأوروبية من خلال المنازل ذات الطوابق والشوارع المستقيمة وساحاتها المربعة.

إنّ التعرج والضيق في تخطيط الشوارع والأزقة في المدينة الإسلامية يعودان إلى عناصر عدة، فالمساكن والدور والقصور والمباني العامة جميعها تضم صحونا وأفنية وحدائق تنفتح على السماء والهواء، وسبل الإنارة من الداخل وبالتالي تنتفي الحاجة إلى

[1]– Charles de Mauprix, Op.Cit, pp382-384.

[2] –Ibid, p 384.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

الشارع الفسيح الممتد، ومن هنا اقتصر اتساعه على ما يسمح بالحركة المرنة وبالمرور بلا عوائق. من ناحية أخرى، إنَ التعرج والضيق يوفران مساحات ظليلة ويتيحان اختزان الهواء الرطب ليلا وإشاعته أثناء ساعات القيظ بما يتيح التلطيف من حرارة الجو في الأزقة مقارنة مع درجة حرارة الفناء الداخلي التي تستلم أكبر كمية من الإشعاع الشمسي الساقط مما يؤدي إلى تخلخل وانخفاض في الضغط الجوي داخل الفناء مقارنة بالزقاق مما ساعد على خلق تيارات هوائية تعمل على تخفيف المناخ داخل المدينة بحيث توفر ظروفا مريحة نسبيا لساكني المدينة، والسابلة في الأزقة، وتنعكس هذه العملية في أثناء الليل بسبب سرعة الفناء في تصريف الحرارة المنبعثة من الهيكل الإنشائي لسعة حجمه الفضائي مقارنة بالزقاق[1].

الصورة رقم 06: منظر لمدينة ندرومة سنة 1888 – De Mauprix

[1]– ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، ط.1، 1994، ص 64–65.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

3. وصف جوزيف كنال لعمران ندرومة وتراره

جوزيف كنال (Joseph Canal) جغرافي فرنسي كان مفتشا للطرق بمدينة سيدي بلعباس وعضوا دائما في نشرة الجمعية الجغرافية والأثرية لعمالة وهران ومن أهم دراساته المنشورة في مجلة الجمعية "مونغرافيا حول تلمسان" بين 1887– 1891[1].

1.3. وصف كنال لعمران تراره:

قام كنال بعملية مسح لكافة منطقة تلمسان، وقد خصص الفصل الثالث من دراسته المونغرافية لمدينة ندرومة وإقليم تراره، وتعرض من خلاله للطابع الإثني والاجتماعي والاقتصادي والثقافي لهذا الإقليم، وقدّم ملاحظاته حول العمران في ندرومة ومنطقة تراره.

أوضح كنال أن سكان تراره اتخذوا مساكنا للإقامة فيها ولم يعتمدوا نمط الخيام[2]، شيدت هذه المنازل من الطين والحجارة ومغطاة بسقوف وكلها مبنية بالطريقة نفسها وعلى أيديهم ومن مواد مختلفة، من الطين والأنقاض المجمعة من الحقول، ومن قوالب الطين الخام المجفف في الشمس، ومن نبات الأرْز أو العرعر.

ولهذه المنازل سطوح تعلوها طبقة من الطين الرطب وفي غالب الأحيان لا يتم مزج الجير معها[3]، وسقيفة صغيرة مصنوعة من فروع نبات الدفلى توضع أمام مدخل

[1] – تتمثل وظيفة مفتش الطرق في مراقبة سير أعمال تشييد طرق المواصلات وصيانتها.

[2]– Joseph Canal, "monographie de l’arrondissement de Tlemcen", In Bulletin de la société de géographie et d’archéologie d’Oran,1888, p82.

[3] –Joseph Canal, Op.Cit, p 87.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

المترل الذي اعتبره كنال مجرد كوخ (Hutte) يسميه التراريون دار حيث يقيم الإنسان والحيوان معا في مكان غير نظيف.[1]

ويصف كنال منازل التراريين قائلا: «أشكال المنازل الترارية مربعة أو مستطيلة تضم ثلاثة إلى أربعة غرف مستطيلة مدعومة بعضها ببعض مغطاة بسقوف مسطحة ومنخفضة ولا يخترقها الضوء إلاّ عبر الباب الذي يظل مفتوحا، أمّا وسط المترل فهو عبارة عن ساحة مفتوحة موحلة ونتنة وهي مأوى لبعض الدجاج وقطيع صغير من الماعز الذي يعتبر الثروة الوحيدة لهؤلاء الجبليين البدائيين، ولا معرفة لهم بالنجارة والحدادة، وأقفال منازلهم في غالب الأوقات عبارة عن حزمة أشواك من العناب البرّي». ويردف قائلا: «تخلو منازل التراريين من أي صبغة جمالية، وتقام بأقل التكاليف، وتفتقد لكل معايير الأمان خاصة في فصل الشتاء الممطر حين تصير غير صحية وخطيرة على ساكنيها»[2].

إن النقطة الأولى التي ننطلق منها في تحليلنا واستقرائنا لوصف كنال للطابع العمراني لمنطقة ترارة تكمن في جزمه منذ البداية أن منازل ترارة كلها متشابهة، وبالتالي لا وجود لاختلافات في المستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في هذه المنطقة الجغرافية؟

استند كنال في حكمه السابق على فرضية أن سكان ترارة أهل ريف، فلاحون ورعاة ولا علاقة لهم بالتجارة، وهذه الأخيرة قد تساهم في اتساع أفق حياتهم بإقامة فعاليات تجارية مع أهل الحضر من شأنها أن تطور نمط حياتهم، وأسلوبهم المعيشي.

[1]- Idem.

[2] - Idem.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

كانت ملاحظات جوزيف كنال ملاحظات ضابط فرنسي ذو نظرة استعلاء برزت من خلال تهكمه الدائم واستصغاره للترارين، الذين يفتقدون حسبه للنظافة، وإن كان قد لامس الحقيقة في بعض الجوانب، ذلك أن سكناتهم بسيطة تفتقد للرفاهية التي تعرفها سكنات الحضر.

وبالنظر إلى إقليم ترارة الجبلي الذي يعج بالقبائل الفلاحية البسيطة والبدائية، فالأمر يعدَ منطقيا في غالب الأحيان إذا وضعنا بعين الاعتبار أن قبائل أخرى خارج هذا الإقليم كانت تقيم في الخيام. لكن إقليم ترارة إلى جانب احتوائه على عدد من القبائل فهو يضم في الوقت نفسه حاضرة ومدينة هامة هي مدينة ندرومة التي أقيمت على سفح أعلى قمة فيه وهي قمة فلاوسن، والحال بين الريف والمدينة يختلف، فيا ترى ماذا كان موضع العمران في ندرومة من الإعراب لدى كنال؟

2.3. وصف عمران ندرومة:

إذا كانت حياة المدن وتفاعلاتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية تختلف لامحالة مع حياة الريف، غير أنّ ما قدمه لنا كنال من وصف للعمران فيها يكاد لا يختلف عمّا قاله حول منطقة ترارة ككل، وقد استهل كلامه بالحديث عن مساجد ندرومة العشرة، –وكان قد أهمل الحديث عن وجود مساجد في إقليم ترارة– وركّز على الجامع الكبير الذي تحدث عن مئذنته المرتفعة المزينة بالآرابيسك والموزاييك الخزفية الملونة، لكن تأسف على «الذوق السيء في كيفية طلائه بالجير الأبيض الذي أفقده كل معيار فني، وكل زينة جمالية.لكن ارتفاعه البارز من خلال المنظر العام للمدينة هو خلاصة الطابع العربي»[1].

[1] – Joseph Canal, Op.Cit, p 266.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

يستطرد كنال في وصفه للمدينة قائلا[1]: «قبل بضع سنوات كان منظر هذه المدينة بشوارعها المتعرجة المتسخة وغير المرصوفة بشكل لائق، وكذا المسلخ المفتوح قرابة السور، وأكوام القمامة، وقذارة برك المياه الراكدة يعطي للزائر انطباعا سيئاً عن حضارة السكان، لكن اليوم تغير هذا المظهر كلية بتواجد مدير البلدية، وشرطة محلية، ومؤسسة خدمات النظام والنظافة، الذين أعادوا لندرومة رغم طابعها الشرقي كل جاذبيتها، ورونقها، وكل رفاهيتها التي افتقدتها منذ أيام الأمراء».

ركز كنال في دراسته للنمط العمراني في مدينة ندرومة على الهياكل الحديثة التي أقامتها السلطة الفرنسية كالباب المشيدة من الحجر المربع والتي وضعت في الشمال الشرقي للسور لتكون مدخلا وممرا لشارع كبير يربط المدينة بالطريق الرئيسي المؤدي إلى نمور (الغزوات)، مغنية، ونحو تلمسان.

كما أشار في وصفه إلى الجدار الكبير الساند الذي أقيم على الامتداد الخارجي للباب وقد شيد بالموازاة معه متراس ورصيف، وحلّ بذلك محل التعلية الترابية القديمة، وقد تحول إلى شارع تكسوه الأشجار، وفي سنة 1887 أقيم جنوب هذا الشارع خارج السور مباني البلدية التي تضم مكاتب البلدية، وسكنات الموظفين الإداريين[2].

ويستمر كنال في وصف شكل المدينة في ظل السيطرة الفرنسية محاولا إخفاء حقيقة نمط عمرانها الشرقي قائلا[3]: « لا يوجد داخل المدينة سوى منزل واحد أقيم على الطراز الأوروبي مؤلف من طابق وله شرفات وسقفه مغطى بالقرميد، كان قد أقيم منذ أربعة سنوات من طرف عائلة ساهو».

[1] – Idem.

[2] – Ibid, p 267.

[3] – Joseph Canal, Op.Cit, p 267.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

هذا يجعلنا نتساءل، هل خلت مدينة ندرومة من المساكن؟ بالطبع لا فقد أشار كنال إلى عددها البالغ 414 مسكن، لكنه لم يتعرض إلى مواصفاتها.

في الواقع؛ إنّ أغلب الدراسات التي أجريت حول المنطقة سواء من قبل المختصين في المجال الحضري في الوقت المعاصر، والرحالة الفرنسيين في السنوات الأولى من الاحتلال اتفقت على أن المسكن الندرومي رغم بساطته إلاّ أنّه يتصف برفاهية مقارنة مع مساكن القبائل المجاورة، وقد استند الطرفان (الحضريون والرحالة) على التأثير الموريسكي باعتبار أن أغلبية كبيرة من سكان ندرومة هم من أصول أندلسية. لكن هذا جزء يسير من الحقيقة فقط، لأن ندرومة عرفت كحاضرة منذ عهد المرابطين، وقد برزت خصائصها العمرانية من مسجدها الشهير المسجد الكبير، ومئذنته العظيمة، وصحنه الجميل الذي يعكس ثقافة محلية على قدر كبير من الأهمية[1].

أما بالنسبة للطابع العمراني للمساكن الندرومية فلا يختلف كثيرا –على الأقل– مع جارتها مدينة تلمسان، فهي في مجملها مساكن متلاصقة ومتقاربة فيما بينها، وشكلت ما يشبه حلقات تحيط بالمسجد الكبير، الذي كان مركزا للمدينة، وهذا هو الدارج في المعمار الإسلامي أن يتوسط المسجد المساكن، كما أنه في أغلب الأحيان يكون قريبا من سوق المدينة[2] كما هو حال مسجد مدينة ندرومة الواقع قبالة سوق الصوف[3].

[1] –William Marçais & Georges Marçais, les monuments arabes de Tlemcen, ancienne librairie Thorin et fils, Paris, 1903, p38.

[2] –le Tourneau, les villes musulmanes de l'Afrique du Nord, La maison des livres, Alger, 1957, p 12.

[3] –Djilali Sari, les villes précoloniale de l'Algérie occidentale Nedroma, Mazouna, Kalaa, SNED, Alger, 1970, p46.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

كما تتشكل المساكن الندرومية من طابق أرضي فقط، رباعية الشكل أو مستطيلة مغطاة بسقف مفتوح في الوسط أو ما يسمى بالصحن حيث ردهة أو فناء المنزل، وهو القسم الوحيد الذي يضمن التهوية الجيدة للمنزل، ويحيط بهذا الفناء غرف المنزل، وتتوسطه نافورة مياه من الرخام أو بئر[1].

الصورة رقم07: نافورة المياه في دار صنهاجي

بالإضافة إلى بعض النباتات والأشجار (العنب، وشجرة البرتقال) وهو ما كان دارجا عند العائلات الثرية، أما بالنسبة للعائلات الفقيرة فيقابل الفناء الحوش الذي كان مستقرا للدواجن والأنعام[2].

[1]– Charles Géniaux, " Nedromah ", In :Revue des deux mondes, Février 1922, p 667.

[2]– Charles Géniaux, Op.Cit, p 667

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

دار القاضي رحال (نموذج للعائلات الثرية)

الصورة رقم 08: دار صنهاجي نموذج للبذخ الندرومي

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

وهناك من يعيد هذا النمط المتبع في المساكن الندرومية التي تتسم بالبساطة والبدائية إلى التأثير العمراني المرابطي ويربط ذلك بالمواد المستعملة في البناء والتي أساسها الحجارة[1]، لكن هذا يبقى مجرد تأويل لا يستند على دلائل ملموسة، فلا يخفى علينا أن مدينة ندرومة هي جزء من إقليم كبير وهو إقليم ترارة والذي ينتشر به هذا النوع من المساكن المتقاربة في تخطيطها، والاختلاف الوحيد يكمن في رفاهية بعضها تبعا لرفاهية سكانها.

كما أن انتشار المساكن المنخفضة ذات السطوح في ندرومة وباقي الحواضر الجزائرية، يفسّره تكلفة البناء التي تتطلب المال الكثير، وقد أشار الرحالة دي لورال De Lorral في رحلته التي قام بها في تلمسان ونواحيها، إلى أن المنازل في تلمسان باهظة الثمن وتزيد بنسبة 20% عن مثيلاتها في وهران، كما أن المواد الأولية في البناء كالخشب والجصّ كان يؤتى بها من وهران الأمر الذي زاد من قيمتها، كذلك اليد العاملة التي تطالب بأجور باهظة لا يتحملها سوى القليل من السكان من الطبقة الميسورة[2].

أما جدران المنزل الخارجية فكلها صماء لا نوافذ لها تجاه الشارع، إلا بعض الفتحات الصغيرة في أعلى الجدار، لا يمكن النظر من خلالها وهذا بحسب التقاليد

[1] – محمد رابح فيسة، المنشآت المرابطية في ندرومة دراسة تاريخية أثرية، مذكرة ماجستير غير منشورة، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2004–2005، ص 87.

[2] – De Lorral, Tlemcen, In tour du monde, 1875, p312.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

الإسلامية، فقد كان عالم المرأة يقف عند حدود ردهة المنزل، ولا ترى السماء إلا من خلال ذلك الجزء الصغير المفتوح من السقف[1].

أما بالنسبة للدهان، فلم يختبر الندروميون على غرار أغلب الجزائريين في ذلك الوقت فن التلوين، واقتصروا على استعمال الجير كطلاء للجدران، مما أعطى لمدينة ندرومة صورة المدينة البيضاء.[2]

وفيما يخص المواد المستعملة في البناء؛ فكانت مواد بسيطة تم جمعها من محيط المدينة، وتتمثل في الحجارة وبخاصة الغرانيت Granite؛ الذي يوجد بكثرة في منطقة ندرومة نظرا لطابعها الجبلي، وقد استعمله الندروميون في وضع أساسات المنازل les soubassements[3] بالإضافة إلى الحصى والطين والجير، والتوف (حجر مسامي) Tuf[4]، وبعض النباتات وأكثرها استخداما خشب الأرز Le Thuya لبناء أسقف المنازل على غرار باقي مناطق ترارة[5].

[1]– Charles Géniaux, Op. Cit, p671 .

[2]–Joseph Canal, monographie de l'arrondissement de Tlemcen, Nedroma pendant la conquête In : BSGAO, 1887, T.7,p 268.

3-V. Demotès, Renseignements sur l'Algérie économique, Paris, 1922, p120.

[4]– De Lorral, Op. Cit, 338.

[5]– Augustin Bernard, Enquête sur l'habitation rurale des indigènes de l'Algérie, imprimerie orientale Fontana frères, Paris, 1921, p 69, & Joseph Canal, T.6, Op.Cit, p97.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

الصورة رقم 09: نموذج للسقف الندرومي

وكذلك خشب العرعر Genévrier الذي يوجد بكثرة في الغرب الجزائري، ويعتبر المادة الأولية والأساسية في تسقيف المنازل عند الأندلسيين الذين انتشروا في مدن عديدة في الجزائر منها مدينتي ندرومة وتلمسان[1]. أما القرميد فلم يكن معروفا لدى الندروميين إلا بعد قدوم الأندلسيين، الذين أعطوا جمالية أكثر للمساكن، وجلبوا معهم ثقافة المنزل ذو الطابقين، والسقف القرميدي الجملوني[2] Toiture à double pente،

[1]– Victor Legrand, Mémoire sur les richesses forestières de l'Algérie, imprimerie et librairie administratives de Paul Dupont, Paris, 1854, p 59.
[2] –Pierre Devambez, Histoire de l'Art, Gallimard, 1961, p1036.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

بالإضافة إلى بناء السلالم الرخامية واستخدام الخزف Faïences[1]، وكذلك بناء نافورات داخل المنازل، وجلب المياه إليها[2]. غير أنّ هذا التأثير الأندلسي لم يمتد صداه عبر كافة المساكن الندرومية بل اقتصر على عدد قليل منها، فقد بقي نمط المنازل البسيطة ذات السطوح هو الطابع الغالب في مدينة ندرومة.[3]

وبخصوص الحديث عن المنازل ذات الطابقين في ندرومة، فلم تكن ثقافة الأندلسيين وحدهم بل ساهم فيها صغر حجم المدينة واكتظاظ المنازل التي خططت بشكل أفقي، جعلها ملتصقة بعضها ببعض ذلك أن كل منزل منها كان ذو واجهة واحدة فقط تطل على الشارع، وباعتبار الدروب والشوارع في أغلبها ضيقة، ومع عدم توفر مساحات شاغرة، تحوّل تخطيط المدينة إلى الشكل العمودي، عن طريق بناء طابق علوي[4]، ولتفادي إمكانية رؤية منازل الجيران، اعتمد الندروميون بناء ما يعرف بالسترة؛ وهي جدار على قدر كافي من الارتفاع يبنى على سطح المنزل في الحد الفاصل بينه وبين المنزل المجاور، وهو أسلوب يطغى على الطابع العمراني الإسلامي[5].

4. الخاتمـــة

نستخلص من قراءتنا وتحليلنا لرحلة دي موبري De Mauprix، ودراسة كنال Joseph Canal:

[1] – Charles Géniaux, Op.Cit, p 667.

[2] –André Bazzana, Maisons d'Al-Andalus ; habitat médiéval et structures du peuplement dans l'Espagne orientale, T.1,Casa de Velazquez, 1992 ,p 189.

[3] – Augustin Bernard,Op.Cit, p 143.

[4] – محمد رابح فيسة، مرجع سابق، ص 82.

[5] – المرجع نفسه، ص 83.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

– أنهما تناولا الطابع الاجتماعي والعمراني لسكان مدينة ندرومة ومنطقة ترارة من منطلق ثقافتهم ومدنيتهم الأوروبية، وقد اتضح ذلك في عدم إعجابهما بالطابع العمراني الشرقي – الإسلامي، وكذا طابع السكنات في الشمال الإفريقي، و انبهارهما بالعمران والمدنية الأوروبية.

– إلصاق البدائية والتخلف بالمجتمع الجزائري سواء في الريف أو في المدينة، وجهله للحياة المدنية وسبل النظافة.

– منازل ومساكن الجزائريين لا تختلف في مخططاتها وأشكالها رغم اختلاف المستوى المعيشي.

إنّ هذه الأحكام وإن لا مست الحقيقة في جزء معين؛ غير أنها تبرز الإيديولوجية الاستعمارية التي تزكي فكرة نقل الحضارة والمدنية للمجتمعات المستعمرة. لذلك ورغم أهميتها في الدراسات التاريخية وحتى في الدراسات الأنثروبولوجية والجغرافية، إلاّ أنها لا تعد المصدر الوحيد، ولا بد من الاعتماد على البحث الميداني والأثري للمس الحقائق أكثر فأكثر.

5. المراجـــع

1. ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، ط.1، 1994.

2. محمد رابح فيسة، المنشآت المرابطية في ندرومة دراسة تاريخية أثرية، مذكرة ماجستير غير منشورة، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2004–2005.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

3. André Bazzana, Maisons d'Al-Andalus ; habitat médiéval et structures du peuplement dans l'Espagne orientale, T.1,Casa de Velazquez, 1992.

4. Augustin Bernard, Enquête sur l'habitation rurale des indigènes de l'Algérie, imprimerie orientale Fontana frères, Paris, 1921.

5. Charles de Mauprix, "six mois chez les traras", In le tour du monde, librairie Hachette & C, Londres, 1889.

6. Charles Géniaux, " Nedromah ", In :Revue des deux mondes, Février 1922.

7. De Lorral, Tlemcen, In tour du monde, 1875.

8. Djilali Sari, les villes précoloniale de l'Algérie occidentale Nedroma, Mazouna, Kalaa, SNED, Alger, 1970.

9. Joseph Canal, monographie de l'arrondissement de Tlemcen, In Bulletin de la société de géographie et d'archéologie d'Oran, 1888.

10. Joseph Canal, *monographie de l'arrondissement* de Tlemcen, Nedroma pendant la conquête In : BSGAO, T.7, 1887,

11. Lahcene Khattabi ,L'habitat individuel et l'urbain Nédromis en transformation, Doctorat en Sciences en Architecture, soutenue le 12/09/2019, Faculté de Technologie, Université Aboubkr,Belkaid, Tlemcen.

12. le Tourneau, les villes musulmanes de l'Afrique du Nord, La maison des livres, Alger, 1957.

13. Pierre Devambez, Histoire de l'Art, Gallimard, 1961.

14. V. Demotès, Renseignements sur l'Algérie économique, Paris, 1922.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 1312–1337 تاريخ النشر: 27–03–2021

15. Victor Legrand, Mémoire sur les richesses forestières de l'Algérie, imprimerie et librairie administratives de Paul Dupont, Paris, 1854.

16. William Marçais & Georges Marçais, les monuments arabes de Tlemcen, ancienne librairie Thorin et fils, Paris, 1903.